نحو رؤية جديدة للتوافق بين النص الديني والتطور العلمي
تطبيق في مجال الأخلاق البيولوجية

د. محمد سيد حسن(*)

ملخص

العلاقة بين العلم والدين علاقة تنطوي على إشكاليات عديدة. وعبر تطورات العلم كانت العلاقة بين النظرية العلمية والسلطة الدينة أما علاقة احتواء أو إقصاء أو علاقة توافقية. إذا ما تعمقنا في طبيعة العلاقة بين العلم والسلطة الدينية - في عالمنا العربي- سنجد أنها علاقة هيمنة الأخيرة على الأولى وأداتها في الهيمنة استخدام سلطة النص لوقف وتقييد سلطة العقل. ولهذا فإن البحث الحالي يطرح نوعين من العلاقة بين السلطة الدينية والعلم في المجتمع العلمي. أما أن تكون علاقة رقابة وهيمنة من السلطة الدينية على النظرية العلمية القابلة للاحتواء، أو علاقة تصادمية بين السلطة الدينية والنظرية الثورية الغير قابلة للاحتواء. ولهذا فإن هذا البحث يسعى إلى تقديم تصورا جديدا للعلاقة بين السلطة الدينية وأداتها المتمثلة في سلطة النص الديني وبين النظرية العلمية من خلال محاولة إيجاد حلقة وصل تربط بينهما وذلك من خلال تفعيل دور القانون باعتباره وسيطا وأداة تسمح بتفعيل دور العقل بما يسمح بتقدم العلم. ولتطبيق هذه الرؤية سنأخذ نموذجا الأخلاق البيولوجية كمثال لتطبيق هذه الرؤية ومحاولة رفع الإشكاليات التي ينطوي عليها الاستخدام الخاطئ للسلطة الدينية في مجال العلم.

ولهذا فإننا نسعى للتمييز بين نصا دينيا استاتيكيا وبين نصا دينيا مرنا من وجهة نظر رياضية. وسنوضح أن ثمة نقيضة ينطوي عليها النص الديني ليس باعتباره ثابتا (المشروط القابل للتغير) conditional changeable ولكن باعتباره ثابتا (اللامشروط اللامتغير) unconditional unchangeable. من خلال طرح فكرة تعددية قراءة النص وقابليته للتأويل واحتمالية النص

(*) أستاذ فلسفة العلوم المساعد جامعة عين شمس.

Possibility of text في مقابل يقينية النص Certainty of text بما يسمح بتمهيد الطريق للعقل العلمي أن يتقدم دون وجود معوقات سلطوية. فهذا البحث يسعى إلى رفع هذه النقيضة وذلك باقتراح رؤية جديدة للسلطة الدينية للنص كما تطبق على الكيان العلمي.

١- مقدمة

تنوعت العلاقة بين الدين وممثليه من رجال الدين وبين العلم عبر تاريخ الحضارة، فعندما يتماشى العلم ونظرياته مع التعاليم الدينية ونصوصها فإن العلاقة تصير علاقة تناغم وانسجام. في المقابل عندما يتجاوز العلم ونظرياته التعاليم الدينية ونصوصها الراسخة التي أجمع عليها رجال الدين فتنقلب هذه العلاقة إلى علاقة صراع وتصادم. بينما عندما يكون هناك اختلاف في الفهم أو اختلاف حول الحقيقة العلمية قد يلجأ إلى إقامة نوع من الجسور بين النص الديني والنظرية العلمية بهدف تجنب التصادم المحتمل بينهما. فعلى سبيل المثال، نظرية كوبرنيقوس حول مركزية الشمس وموقف العلماء اللاحقين عليه أمثال كبلر وجاليليو والمؤيدين لفرضية ثابت الشمس يعد نموذجا للعلاقة التصادمية بين العلماء ورجال الكنيسة الذين أيدوا- في المقابل- فرضية ثبات الأرض. ولدينا من الأدلة والشواهد التي تظهر هذه العلاقة التصادمية. (Hassan,M, 2009).

ولهذا فقد استقبلت الكنيسة الكاثوليكية أراء هؤلاء العلماء بالرفض ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى مرحلة الإقصاء والتجريم والسجن بل حتى القتل أو الحرق كما فعل أباء الكنيسة مع جوردانو برونو (١٦٠٠-١٥٤٨) انظر (Weiner, A,D: 1980, 3). التي كانت أعماله خطوة هامة في تطور كلا من الفكر العلمي والفلسفي في القرن السابع عشر وبداية جريئة للتحرر من سلطان النص الديني. (Paterson, A: 1970, 16). فقد سعت الكنيسة إلى دحض النظرية العلمية من خلال اعتمادها على النصوص الدينية التي تؤيد صحة موقفها وصلابته في مواجهة النظرية العلمية. ومع استمرار دفاع العلماء عن فرضيات كوبرنيقوس ومع استمرار سوء استخدام سلطة النص الديني، جعل الكثيرين يفتقدون الثقة في الكنيسة وإثارة الشك في صحة معلومات رجال الدين. مما أدى إلى فتح الباب للتجربة والبحث العقلي باعتبارهما طريقين متوازيين للحصول على الحقيقة. وانعكس ذلك على أهمية فكرة المطلق الثابت التي كانت مسيطرة على رجال الكنيسة كأداة للسيطرة على الفكر وحريته في البحث

والسعي للوصول إلى الحقيقة النسبية. وهنا اعتمد القائلون باستقلالية العقل على فكرة الفصل الجزئي بين سلطة النص الديني وبين الأدلة العلمية مع الاحتفاظ بفكرة الوحى، ومنهم من رأى أن الحقيقة واحدة وأن لا اختلاف بين الحقيقة العلمية والدينية كإسحاق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧) وقوانينه عن الحركة وغيره من مفكري القرنين السابع عشر والثامن عشر أمثال جوتفريد لينتز (١٦٤٦-١٧١٦) الذين سعوا إلى التوفيق بينهما. في مقابل هذه النظرة التوفيقية، ومع تقدم الحضارة واستقلال العقل ظهر دعاة التجديد مطالبين باستقلال تام للعقل عن الوحى بل منهم من ذهب أبعد من هذا الحد بالتشكيك في وجود الوحى أو إنكاره كليا لصالح النظرية العلمية أمثال شارلز دارون (١٨٠٩-١٨٨٢) وتوماس هكسلي (١٨٢٥-١٨٩٥). (Mayer, E, 1982, 84). الأمر الذي افرز جيلا جديدا من العلماء الذين طرحوا قضية الدين والوحى وانشغلوا فقط بالعلم وقضاياه دون الحاجة إلى وجود سلطة خارجية متمثلة في سلطة نص. والسؤال الآن، هل يظل العلم بعيدا عن اية سلطة خارجية تحاول أن تكبح جماحه، خاصة مع تعقد الحياة الإنسانية وتناول قضايا شائكة؟

في الواقع سنتناول في المحور التالي أشكال العلاقة بين النظرية العلمية والنص الديني والتي تتمثل - من وجهة نظر البحث الحالي- إلى ثلاث علاقات كما سنوضحها الآن.

٢- أشكال العلاقة بين النظرية العلمية والنص الديني

سنتناول في هذا المحور الأشكال المتعددة بين كلا من النظرية العلمية والنص الديني. وستحاول هذه الدراسة أن تفسر أشكال العلاقة من خلال تبنى نموذجا رياضيا يفسر هذه العلاقات. ولهذا فإن الدراسة الحالية تصنف أشكال العلاقات بينهما على النحو التالي:

أ- علاقة الشمولية والتضمن Inclusiveness Relationship:

عندما تكون النظرية العلمية متضمنة بأكملها في النص الديني وهنا تكمن تبعية النظرية لسلطة النص الديني. بعبارة أخرى فإن النص الديني يعد ثابتا ومستقلا ذاتيا في مقابل القانون العلمي أو النظرية التي تعد تابعا للأخير.

شكل رقم (١): يوضح علاقة الشمولية والتضمن

ب- علاقة الاستقلالية Independence Relationship

عندما تكون النظرية العلمية مستقلة عن النص الديني وبعيدة عن سلطة النص. وهنا فإن كلا من النظرية العلمية والنص الديني عاملين مستقلين عن بعضهما، كما انهما يعدان ثابتان في ذاتهما ومستقلان عن بعضهما البعض. ذلك لان كلاهما ينتميان إلى عالمين مختلفين عالم التجربة والملاحظة في مقابل عالم الوحي.

شكل رقم (٢): يوضح العلاقة الاستقلالية

ج- علاقة التقاطع التبادلية Intersective Interrelationship

عندما تتقاطع النظرية العلمية مع النص الديني ويكون بينهما حوارا مشتركا ولغة انسجام قائمة بدلا من الشكلين السابقين. فهذه العلاقة لا تتضمن علاقة أحادية ثابتة ولكنها تتضمن احتمالا لوجود ا شكال متعددة، بحيث تكون مساحة التقاطع أكبر أو أقل أو أنها علاقة قد

تتحرك باتجاه النص ولصالحه بنسبة كبيرة أو متفاوتة، كما أنها قد تتحرك في اتجاه النظرية العلمية وبمساحة متفاوتة لصالح النظرية. فنحن هنا بصدد الحديث عن النظرة التوافقية Reconciled approach بين كلا من النظرية العلمية والنص الديني، وبصدد طرح أشكال متعددة للعلاقات المحتملة بينهما. وبهذا تتوقف مساحة وحجم التوافق على تحديد العنصر الثابت ومن سيمثل العنصر المتغير. فإن كان النص الديني ثابتا Invariant فإن حجم ومساحة التوافق تسير في صالح النص الديني على حساب النظرية التي تعد في هذه الحالة متغير Variant والعكس إذا كان القانون العلمي هو الثابت invariant فإن حجم ومساحة التوافق تسير في صالح النظرية على حساب النص الديني الذي يعد في هذه الحالة variant كما يتضح هذا من النموذج التالي.

شكل رقم (٣): يوضح علاقة التقاطع التبادلية

وسوف تتناول الدراسة العلاقات المحتملة التي قد تنتج عن هذا النموذج الرئيسي وتحديد الثابت ومساحة التقاطع والتداخل بينهما.

والآن دعنا نناقش بالتفصيل هذه العلاقات الثلاث، لكي نوضح النقيضة التي تتضمنها العلاقة بين النظرية العلمية والنص الديني وكيفية رفع هذه النقيضة في إطار هذه الرؤية الفلسفية التي تطرحها الدراسة. ولهذه سنقوم بعملية تصنيف لهذه العلاقات الثلاث السابقة بحيث نجمع كلا من علاقة الشمولية والتضمن وعلاقة الاستقلالية في فئة واحدة. ومن جهة

أخرى نضع علاقة التقاطع التبادلية في فئة أخرى مستقلة. والسبب في هذا التقسيم والتصنيف الذي تستند عليه الحجة المتعلقة بهذه الدراسة، أن العنصر المحدد للفئة الأولى هو ما اطلقت عليه اللامشروط اللامتغير Unconditional unchangeable وهو العنصر الذي يعطى لهذه الفئة خصائصها. بينما العنصر الذي يحدد الفئة الثانية هو ما اطلقت عليه المشروط المتغير Conditional Changeable هو الذي يحدد لهذه الفئة خصائصها. من جهة أخرى، فإن هذه الدراسة تزعم أن حل النقيضة - المزعومة بين النص الديني والنظرية العلمية - يكمن في هذا العنصر الذي سنناقشه لاحقا.

٣- النظرية العلمية والنص الديني في ضوء اللامشروط اللامتغير

في هذا المحور سنتناول العلاقة بين النص الديني والنظرية العلمية في ضوء اللامشروط اللامتغير من خلال مناقشة الشكلين (١) (٢). ولهذا ستناقش الدراسة العلاقة بين النص الديني والنظرية العلمية من خلال علاقة الشمولية والتضمن، ثم نعقبها بمناقشة العلاقة بين النص الديني والنظرية العلمية من خلال علاقة الاستقلال. وسنجد أن كلتا العلاقتين تتضمنان احتمالين فقط إما أن تكون النظرية متضمنة كليا في النص الديني أو مستبعدة كليا. وكذلك الحال بالنسبة لعلاقة الاستقلال فإما أن يخضع النص الديني ويفهم في ضوء اكتشافات النظرية العلمية أو المطالبة باستبعاد الدين كليا في الشأن العلمي وهذه النظرة ما يعرف بعلمانية العلم Secularism of Science.

٣-١ علاقة الشمولية والتضمن واللامشروط اللامتغير

لقد تحدثنا سابقا عن موقف الكنيسة الكاثوليكية من نظرية مركزية الشمس Heliocentric theory التي طرحها كوبنيقوس واتبعه كلا من كبلر وجاليليو في الفرضيات الأساسية القائلة بدوران الأرض حول الشمس. ولهذا تعرض كلٌ من مؤسس النظرية واللاحقين عليه لضغوطات وممارسات عنف لكي يغيروا هذه الآراء العلمية باعتبارها متناقضة مع الكتاب المقدس والقائل بمركزية الأرض Geocentric theory. ولعل العالم الذي لم يتعرض لاضطهاد من قبل الكنيسة الكاثوليكية هو العالم والرياضي الدنماركي تيكوبراهى (١٥٤٦-١٦٠١) الذي سعى لتحقيق الانسجام والتأليف بين تعاليم الكتاب المقدس القائل بثبات الأرض وبين بعض مسلمات كوبنيقوس الخاصة بحركة الأفلاك كما ظهر ذلك في نموذجه القائل بثبات الأرض

ودوران الشمس حولها و ولكن في المقابل يثبت فيه حركة بعض الكواكب مثل عطارد والمريخ حول الشمس. (Hassan, M 2010). وهذا يشير إلى استعداد النص الديني إلى استيعاب النظرية العلمية إذا ما اتفقت الأخيرة مع النصوص الدينية. أو على النقيض رفضها بالكلية مثل نظرية التطور على سبيل المثال. ومن القضايا التي تطرحها هذه الدراسة هي تلك القضايا العلمية المعاصرة ذات الأبعاد البيولوجية وموقف رجال الدين منها في عالمنا الإسلامي.

٣-١-١ القتل الرحيم Euthanasia:

من المسلمات الأساسية في عالمنا الإسلامي أن الموت والحياة من أفعال الله سبحانه وحده فهو الذي يحيى ويميت. وهناك العديد من الآيات التي يمكن الاستشهاد بها لتأكيد هذا المعنى السابق. وتحت كل الظروف لا يجوز أن يقدم الإنسان على الانتحار حتى لا يشارك الله في فعل من أفعاله. فلا يجوز أن يقتل نفسه من خلال الإقدام على الانتحار أو أن يقتل نفسا أخرى بدون حق. هذه الأحكام المتعلقة بعدم القتل أو الانتحار هي أحكام مطلقة لأنها تدخل في أعمال الشرك وقد نهى عنها. والسؤال الآن ماذا عن الانتحار في حالات الأمراض النفسية كالإصابة بالاكتئاب والاضطرابات العقلية Mental Disorders أو الذهانية Psychosis كالفصام؟ وماذا عن المرضى الذين يعانون من الإصابة بحالات متقدمة من مرض ما و يتألم بشده من مضاعفات الألم و ينتظره الموت لامحالة بعد عدة أيام؟ وهنا يظهر مصطلحا جديدا يعرف بالقتل بمساعدة الطبيب المعالج Physician Assisted Suicide (PAS) وعلى الرغم من الجدل حول قانونية أو مشروعية القتل الرحيم بمساعدة الطبيب المعالج سواء لأنه ضد مسلمة دينية بعدم قتل النفس أو لأسباب متعلقة بأخلاق طبية أو لأسباب متعلقة بحرية الفرد في أن يضع نهاية لحياته تنهى متاعبه المتضاعفة أو ما يطلق عليه حديثا الموت بكرامة Death with Dignity. فإن ما يهمنا مناقشته في هذا السياق قضية القتل الرحيم - باعتبارها أحد القضايا التي تطرحها الأخلاق البيولوجية- بالنص الديني في عالمنا الإسلامي. ففي إطار علاقة الشمولية والتضمن فإن النص الديني هنا يجرم ويحرم الانتحار سواء كان لأسباب نفسية أو عقلية أو لأسباب فسيولوجية سواء أقدم المريض على وضع نهاية لحياته بنفسه أو كان قتلا رحيما بمساعدة الطبيب المعالج. ففي كل الاحتمالات فإن النص الديني ثابت وغير قابل للتغيير كما أنه غير مشروط بشروط أخرى قد تسمح بتحريك النص أو إعادة تأويله. ولهذا فإن كل الاحتمالات التي طرحناها الخاصة بمبررات وضع نهاية للمريض تعد كلها عناصر أو متغيرات تظل مشروطة بالنص

الديني الذي أطلقنا عليه اللامشروط واللامتغير. ومن ثمة فإننا هنا أمام احتمالين لعلاقة النص الديني بقضية القتل الرجيم:

(أ) أن يتضمن النص الديني قضية القتل الرجيم ويشملها كليا.

(ب) أن يستبعد النص الديني قضية القتل الرجيم ويكفر مرتكبها أو القائل بها.

٣-١-٢ التبرع بالأعضاء البشرية Human Organs Donation:

من القضايا المثيرة أيضًا للجدل في عالمنا الإسلامي قضية التبرع بالأعضاء في حالة الوفاة الاكلينيكية للدماغ. ويندرج تحت هذه القضية التبرع بالأعضاء في حالة الوفاة بدون وصية أو التبرع بها بناء على وصية المتوفى وذلك أما لإنقاذ مريض آخر أو من أجل تقدم البحث العلمي. أكدت الجنة الدائمة للفتاوى التابعة للرئاسة العامة للبحوث العلمية والافتاء بمنع وحرمة التبرع بالأعضاء اعتمادا على حديث «كسر عظم الميت ككسره حي» (فتاوى اللجنة الدائمة، ص١١٩). والمبرر في تحريم نقل أعضاء الشخص المتوفى دماغيا أو توفى لمرض أو بدون مرض، أن الإنسان لا يملك جسده وأعضائه سواء تنازل عنها بوصية أو بدون وصية فإنها ملك لخالقها. وفي الوقت ذاته يرى أنصار هذا التيار عدم جواز التبرع بالأعضاء للشخص المعاف وذلك لإنقاذ مريض آخر أو قريب له مستندين على الفتوى أن المرء لا يملك أعضائه حتى يهبها لغيره، كما أن التبرع قد يؤدي إلى هلاك الشخص وذلك لقوله «لا تقتلوا أنفسكم» وأن التبرع بالأعضاء مثل الكلي أو جزء من الكبد قد يؤدي إلى وفاة المتبرع ذاته. ويرتبط بهذا الرأي عدد من القضايا الأخرى مثل بنوك الأعضاء وبنك العين وبنوك الحيوانات المنوية والبويضات الملقحة ونقل الأعضاء التناسلية وبنوك الجينات والعلاج الجيني وغيرها من القضايا البيولوجية ذات الصلة بالقانون الأخلاقي. فالأصل في أغلب هذه الفتاوى الصادرة من رجال الدين المنتمين إلى هذا التيار أما التحريم أو السماح في أضيق الحدود الممكنة التزاما بالنص وخوفا من الفوضى العلمية التي قد تنتج عن عمليات النقل والزراعة والعلاج. وهنا ندور أيضًا في نفس الفكرة التي طرحناها وهي فكرة اللامشروط اللامتغير حيث يلعب النص الديني دور الثابت الذي لا يتغير والذي لديه القدرة الاستيعابية على احتضان التطورات العلمية الجديدة -بما في ذلك التطورات المرتبطة بصحة الإنسان نفسه- وبحيث يعد هو الشرط المنظم للعلاقات الناشئة بين هذه التطورات العلمية. وفي ضوء هذا الفهم فإن النص الديني هو الثابت Invariant في مقابل

النظريات الجديدة المتعلقة بنقل الأعضاء وزراعتها والتلقيح الصناعي والعلاج الجيني وغيرها من القضايا والتي تمثل هنا مجموعة المتغيرات Variants للثابت الديني.

وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام الاحتمالين المتعلقين بعلاقة الاحتواء والتضمن:

(أ) أما أن يتضمن النص الديني قضية التبرع بالأعضاء البشرية وبنوك الأعضاء ويشملها كليا.

(ب) وأما أن يستبعد النص الديني قضية التبرع بالأعضاء البشرية وبنوك الأعضاء.

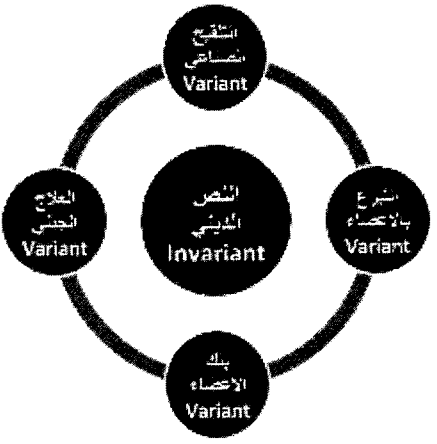

شكل (٤): يوضح العلاقة بين الثابت اللامشروط وبين المتغيرات التابعة له

ننتقل الآن إلى اختبار صحة هذا النموذج في قضية بيولوجية مثارة منذ فترة وهي قضية الاستنساخ. ولن اتطرق إلى قضية استنساخ الإنسان أو استنساخ أعضاء بشرية قد تفيد في عمليات زراعة الأعضاء واستخدمها كبدائل عن الأجهزة الصناعية مثل دعامات القلب التي قد أثبتت نجاحا فائقا مقارنة بالنتائج المتحصلة من الدعامات الصناعية. فهذه القضية تتضمن إشكاليات متعددة سواء كانت دينيا أو أخلاقيا. لهذا ستقتصر المعالجة هنا على قضية استنساخ النباتات والحيوانات.

٣-١-٣ الاستنساخ الحيواني والاستنساخ النباتي Animal and Plant Cloning:

من الموضوعات التي أثارت الجدل بين رجال الدين وعلماء الوراثة الجينية مدى مشروعية عملية الاستنساخ سواء في النباتات أو في الحيوانات. حيث تعتمد عملية الاستنساخ في كلاهما

على استنساخ الخلية أو من خلال الأنسجة حيث يتم تعديل وراثي في الحامض النووي DNA مما يتيح إنتاج نسخ من النباتات الأصلية أو الحيوانات و إنتاج سلالات متميزة من حيث قدرتها على مقاومة الأمراض أو تحمل التغيرات المناخية أو مقاومة الأمراض وغيرها من المسائل الأخرى. أن تقنية استنساخ الحيوانات تهدف إلى خدمة الإنسان والبحث العلمي في المقام الأول بقدراتها على إنتاج حيوانات يمكن أن تنتج لحم بمعدلات أكبر من الحيوانات العادية بالإضافة إلى كميات اللبن. علما أن الألبان الناتجة تحتوي على نوعيات من البروتينات العلاجية التي قد تعالج أمراضا مزمنة كمرض السكر أو ضعف النمو وغيرها من الأمور الهامة للإنسان. ولكن هذه التقنية وما تقدمه من تحسين شروط الحياة للإنسان تصطدم مع بعض النصوص القرآنية التي ترى أن عملية الاستنساخ النباتي والحيواني هو تبديل صريح لخلق الله. يقول الحق في كتابه الكريم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ صدق الله العظيم [لقمان: ١١] وكذلك يستشهد أصحاب هذا التيار بهذه الآية كدليل لتحريم الاستنساخ في شقيه النباتي والحيواني. ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٩] و يعتمد القائلون بحرمة الاستنساخ سواء للنباتات أو الحيوانات على حرفية النص بطرف النظر عن الفوائد التي يمكن أن يتحصل عليها الإنسان نتيجة تطبيق التقنية المتقدمة. وهنا نرى أن علاقة الشمولية والتضمن تعتمد على التقنية العلمية التي تحافظ على الصفات والخصائص الوراثية للكائن الحي وتتضمنها. بينما الأساليب التي تعتمد في منهجيتها على تغيير الحامض النووي أو استنساخ حيواني كالاستنساخ الذي طبق على النعجة دوللي Dolly فهو أمر يتنافى مع النص الديني ومن ثمة يجب إقصاء تلك المنهجيات. في إطار هذا السياق نستطيع أن نرى أن الذي يحدد عملية القبول والرفض للنظرية العلمية هو النص الديني وحده باعتباره ثابتا في كل الظروف وغير قابل للتغيير أو للتأويل ومن ثم فهو لا مشروط unconditional لأنه غير خاضع لسلطة اعلى منه أو تساويه بما في ذلك سلطة العقل أو الحاجة البشرية المتزايدة التي تفرضها تقدم الحضارة. وهنا أيضًا في إطار قضية الاستنساخ النباتي والحيواني نكون أمام احتمالين كما في الحالتين السابقتين:

(أ) إما أن يتضمن النص الديني قضية الاستنساخ النباتي والحيواني بصورتها التقليدية دون تطبيق تقنيات الحامض النووي وبهذا يشمل التطبيقات في كليتها.

(ب) وأما أن يستبعد النص الديني قضية الاستنساخ النباتي والحيواني التي تطبق تقنيات الاستنساخ بالتعديل الوراثي للخلية.

ننتقل الآن إلى القضية الأخيرة التي تمثل علاقة الشمولية والتضمن وهي من القضايا الأساسية التي تمثل عائقا للعلماء نحو التعبير عن آرائهم بحرية دون الخوف من ملاحقة دينية أو تهديدا من السلطة الدينية.

٣-١-٤ العلماء وقضية الردة عن الدين The Scientists and Apostasy:

في هذه الفقرة نتناول قضية محورية تمثل المنتج النهائي للتفاعل بين النص الديني والنظرية العلمية. فالحكم على اكتشافات العالم دائما موضع تقييم من قبل رجال الدين باعتبارهم ممثلين للسلطة الدينية. فهم من يحكمون بصحة النظرية أو عدم صحتها في ضوء السلطة الممنوحة لهم من النص الديني. فالعالم قد يحكم عليه بصحة دينه وسلامته وصحة إيمانه trustworthiness of his\her faith أو على النقيض قد يحكم عليه بكفره و إلحاده لمخالفة النظرية أو القانون الذي يطرحه للنص الديني. فمن العلماء الذين تم تكفيرهم الفارابي ابن سينا، ابن رشد. بالإضافة إلى حالات معاصرة- صحيح لم يكونوا علماء للطبيعة أمثال الدكتور نصر أبو زيد أو انهم خريجي كليات علمية كالطبيبة والكاتبة نوال السعداوي وفرج فودة. وهنا يجد العالم نفسه بين احتمالين أما أن يتخلى عن أرائه لصالح النص الديني وهنا يتجلى الاحتواء في أكمل معانيه، وأما يتم إهدار دمه باعتباره خارجا عن الدين لمخالفته النصوص الدينية ومن ثم يتوجب على هذا الحكم ضرورة الفصل بينه وبين زوجه وما يترتب عليه من أحكام دينية أخرى.

هذا النوع من أنواع العلاقة بين النص الديني والنظرية العلمية بما تمثله من سلطة العقل لا يترك احتمالات أخرى يمكن أن تتولد في ظل السلطة الدينية والتي تعد بمثابة اللامشروط اللامتغير والذي يحدد علاقة النص وفهمه وتأويله بالنظرية العلمية. وبهذا نستطيع رؤية علاقة العلم بالنص الديني هي علاقة عكسية فكلما زاد جمود النص، كلما ضعفت قيمة العلم والاكتشافات العلمية -التي تتعارض مع حرفية النص الديني. فاذا ما عبرنا عن العلم بالرمز S والنص الديني بالرمز R وعند ثبات السلطة الدينية فيمكننا إيضاح هذه العلاقة في صورة الشكل التالي:

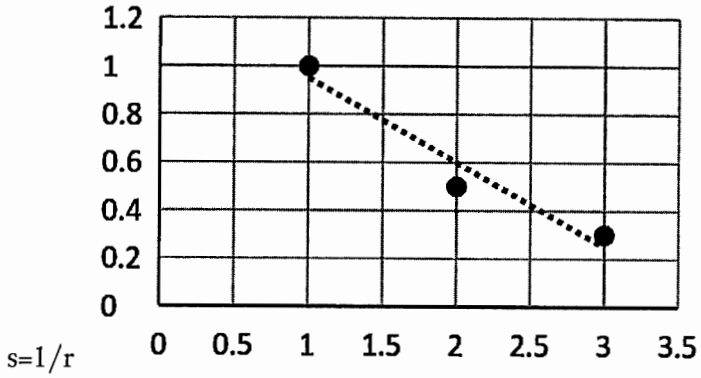

شكل (٥) يوضح العلاقة بين النص الديني والعلم

دعنا الآن ننتقل إلى شكل جديد من أشكال العلاقة بين النص الديني والنظرية العلمية، الذي أشرنا إليه بنموذج الاستقلال الشكل (٢). ننتقل الآن لمناقشة نموذج الاستقلال.

٣-٢ علاقة الاستقلالية واللامشروط اللامتغير:

يحدد هذا النموذج شكل العلاقة الجديدة بين النص الديني والعلم في إطار مخالف حيث يحتل النص الديني دورا ثانويا تابعا لصالح النظرية العلمية التي تمثل الثابت الجديد الذي ينظم شكل العلاقة بين الاكتشافات العلمية والنص الديني. وهنا تتم عملية تحول shift حيث يتحول اللامشروط اللامتغير ليصير النظرية العلمية ذاتها وسلطة العقل بدلا من اللامشروط اللامتغير الذي كان يمثله النص الديني في علاقة الاحتواء والتضمن التي سبق وأن أشرنا إليها سابقا. دعنا الآن نتناول بعض القضايا العلمية التي تعكس طبيعة الثابت invariant الجديد وموقف العلم باعتباره ممثلا لسلطة العقل من النص الديني.

تعتمد علاقة الاستقلال على مبدأ أن لا سلطان على العقل إلا العقل ذاته، وحيث أن الإنسان هو من يقوم بالبحث العلمي، إذًا فانه يفسر نتائج اكتشافاته اعتمادا على أدواته في البحث وصحة استدلالاته ومشاهداته فقط دون الحاجة إلى سلطة أخرى خارجية يرجع إليها لتفسير تلك الاكتشافات العلمية. وبناء على هذا المبدأ سعى العديد من العلماء لإرساء هذا المبدأ عند تناولهم النظرية العلمية. ونستطيع أن نجد تطبيقات لهذا المبدأ في مجالات علمية عديدة على سبيل الإيضاح.

٣-٢-١ نظرية التطور:

الفكرة الرئيسية التي قامت عليها النظرية أن الكائنات الطبيعية لم تخلق ولكنها نشأت وتطورت نتيجة عملية طبيعية أطلق عليها التطور. فهذه الفكرة تصطدم مع الكثير من المسلمات الدينية المتعلقة بفكرة الخلق Creationism فهذه الفكرة لا شك تنفي وجود خالق للكائنات الطبيعية كما أنها تنفي فكرة العناية الإلهية Divine providence. ولهذا فإن القائلين بنظرية التطور لم يتوقفوا عند تلك المسلمات الدينية وانطلقوا في نظريتهم اعتمادا على المشاهدات التجريبية. وقد فضلوا الاتصاف بالإلحاد Atheist أو الاتصاف بالشك Agnostic كشارلز دوران وتوماس هكسلي على سبيل المثال (See Hassan,M: 2009: 1-9). وقد عبر عن هذا التصور جورج جيلورد سامبسون قائلا:

«يعد الإنسان نتاجًا لعملية طبيعية لا غرضية لم تضعه في ذهنها كما أنه جاء بدون تخطيط مسبق. فالإنسان يعد حالة من حالات المادة، شكل من أشكال الحياة، نوع من الحيوان، وسلالة من القردة العليا متشابه بطريقة قريبة أو بعيدة فكل أشكال الحياة ذات الطبيعة المادية» (Simpson,G. 1971: 345).

فالقائلون بهذا الرأي ينظرون للإنسان باعتباره جزءا من الطبيعة تطور كنتيجة لعملية مستمرة تسمى التطور. ومن ثم فإن أية اشارة إلى فكرة الخلق أو التصميم الإلهي Intelligent Design للطبيعة تعد فرضيات ضد العلم والمشاهدات التجريبية. فعلاقة الاستقلال ترفض الأفكار التي تتجاوز الطبيعة كما ترفض التفسيرات التي تعتمد على أسس دينية لتفسير طبيعة الأشياء التجريبية والمادية. ولاشك أن هذا الاتجاه في التفسير anti- religious attitude يطرح الدين جانبا لان العلم هنا يظهر كثابت يعمل على إزاحة الدين. وهي تعد إحدى سمات العلم المعاصر لأنه يمدنا بالأدلة اليقينية المؤسسة على وصف العالم الطبيعي في مقابل معتقدات يحيطها الغموض. ولهذا ترى جوليان هكسلي أن العلم الحديث يجب أن يسيطر على الطبيعة بعيدا عن فكرتي الخلق والرعاية الإلهية. (Huxley, J: 1942: 457). ولهذا فإن المؤيدين لنظرية التطور يتفقون مع رأي إسحاق اسيموف القائل بأن:

«هؤلاء العلماء الذين تدربوا في مجال العلم، فإن فكرة الخلق تبدو وكأنها حلم سيئ، إعادة فجائية لكابوس، مسيرة متجددة لجيش الليل المظلم لكي يتحدى الفكر الحر والتنوير» (Montagu, A: 1984, 183).

ولهذا فإن العلم عندما ينظر إليه باعتباره ثابتا لامتغير فإننا نكون أمام احتمالين:

أ- أما أن يتخذ العالم موقفا دينيا مغايرا للإيمان الارثوذكسي كأن يتأخذ موقفًا متشككًا Agnosticism أو ملحدا Atheism من الدين، باعتبار أن كلا من الحقيقة الإيمانية والحقيقة العلمية متضادين. وقد عبر عن هذا الاتجاه هادلين قائلا:

«إن ممارساتي كعالم تعد ممارسات إلحادية. وهذا يعني، أنني عندما أقوم بتجربة فيستلزم أفترض أنه لا يوجد إله، ملاك، شيطان سيتداخل مع إجراء التجربة، وهذه الفرضية قد تم تبريرها من خلال النجاح الذي حققته عبر مسيرتي المهنية. ولهذا فإنني قد أكون بصورة عقلانية شخص غير أمين إذا لم أكن أيضًا ملحدا بخصوص أمور العالم الخارجي» (Haldane, J. B. S: 2008,27).

وفي وقتنا الحاضر يطلق على هذا الاتجاه في البحث Methodological Naturalism المنهجية الطبيعية وهو يمثل اتجاهًا منهجيا يلزم الباحث الطبيعي بالاقتصار على البحث العلمي من خلال دراسة العلل الطبيعية واستبعاد كل سبب يقودنا إلى افتراض كائنات مفارقة. ولهذا فإن هذا الاتجاه المنهجي يلزم الباحث بالبحث عن العلل التجريبية والطبيعية فقط القابلة للقياس والتكميم والدراسة المنهجية.

ب- وأما أن يظل محافظا على موقفه الديني مع الفصل بين مجال العلم ومجال الدين باعتبار أن الحقيقة الدينية لا مجال لها في مجال البحث التجريبي. وهذا الموقف ما يعرف بعلمانية العلم Secularization of Science. حيث أن العلم يقدم أسس يمكن الاعتماد عليها والتحقق من صحتها لإيجاد حلول وتفسيرات مقبولة للاكتشافات العلمية. ونتيجة لذلك فإن أصحاب هذا الاتجاه يتمسكون بالمبادئ العلمانية وليست الدينية لتقديم تفسيرا مقبولا للنظرية العلمية. ويجدر الإشارة أن هذا الاتجاه يجب ألا ينظر إليه باعتباره وجهة نظر ضد الدين ذاته. ولكن في الواقع أنها محاولة لوضع المعتقدات الدينية جانبا أثناء تفسير الاكتشافات العلمية.

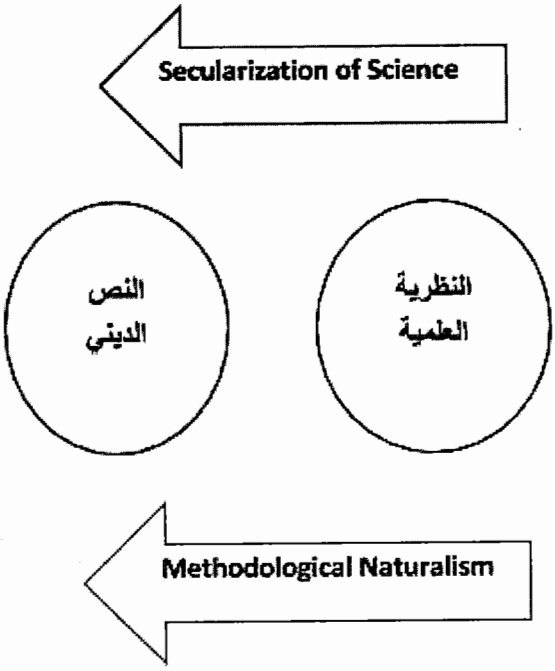

الشكل رقم (٦): يوضح البدائل الابستمولوجية لعلاقة الاستقلال

٣-٢-٢ ظاهرة الاحتباس الحراري:

قضية أخرى مرتبطة بنموذج الاستقلال وتعد من القضايا الهامة في فلسفة البيئة وهي ما تعرف بظاهرة الاحتباس الحراري Global Warming phenomenon والمحافظة على البيئة الطبيعية. ويقصد بها زيادة درجات حرارة الأرض تدريجيا نتيجة الثورة الصناعية والغازات الناتجة عنها والغازات الدفيئة الناتجة عن استخدام الآلات الكهربائية. فأحد أسباب تفاقم هذه المشكلة الاستخدام السيئ للطبيعة كقطع الأعشاب و إزالة الغابات واستخدام الطاقة. وتعتمد مشكلة الاحتباس الحراري على رؤية دينية تنص على أن الإنسان خليفة الله في الأرض، وأن الإنسان مستخلف في الأرض وكل ما عليها هو ملك للإنسان. ونتيجة لهذا التصور الديني نتج عنه سوء استخدام الإنسان للبيئة باعتبارها ملك له وانه سيد على الأرض. وقد نتج عن هذه الممارسات السلبية مشكلة الاحتباس الحراري التي تهدد الإنسان ذاته. ولهذا فإن حل هذه المشكلة يعتمد على الفصل بين مفهوم البيئة وبين مفهوم استخلاف الإنسان. فكل محاولة علمية لحل المشكلة القائمة سوف تبوء بالفشل طالما أن هناك مزج بين المفهومين البيئة والاستخلاف.

وطالما أن الإنسان مازال يعتمد على التصور القائل بأن الأرض وما عليها قد سخر لخدمته ومن حقه أن يمارس هذا الحق الممنوح له بموجب النصوص الدينية. (انظر سورة الاعراف الآية ٧٤، أيضًا سورة هود الآية ٦١) فكان من الضروري تفريغ القضية من مضمونها الديني ثم يليها مرحلة علمنة القضية بحيث تتيح للعلماء البحث عن حلول تتجاوز المضمون الديني. وهذا غير ممكنا بدون الفصل بين النص الديني والمحاولات العلمية لإيجاد حلول تتجاوز مفهوم الاستخلاف. ولهذا يرى ماسيمو بليجي استاذ علم البيئة «أن الفرض الرئيسي للعلم يقوم على الزعم بأن العالم يمكن أن يفسر كليا في ضوء المفاهيم الفيزيائية بدون الحاجة إلى افتراض كيانات مفارقة» (Pigliucci, M: 2003, 195). وهنا يمثل العلم اللامتغير اللامشروط الذي ينظم شكل العلاقة بين النظرية والدين كما اوضحنا ذلك سابقا.

٣-٢-٣ نظرية الاكوان المتعددة عند ستيفن هوكنج:

قدم عالم الفيزياء النظرية Stephen Hawking ستفين هوكنج نظريته التي طرحها في كتابه التصميم العظيم The Grand Design تفسيرا نظريا لفكرة نشاءة الكون تخالف فكرة خلق الكون. وعلى الرغم من اعترف هوكنج بنظرية الانفجار الكبيرة التي طرحت فكرة سرمدية الكون جانبا وجعلت الكثير من العلماء يؤمنون بفكرة أن للكون خالق. (انظر سورة الانبياء الآية رقم «٣٠» وأيضًا سورة الذاريات الآية رقم «٤٧») فإن هوكنج لا يتطرق لفكرة بداية الكون. ولهذا يزعم أن كان قانون الجاذبية موجود، فالكون يستطيع خلق نفسه. فالخلق التلقائي هو سبب وجود كل شيء. ولعل هوكنج في هذا يستند على الاسس النظرية لنظرية كل شيء Theory of everything فهذه النظرية تقدم وصفا شموليا للمادة ولديها المرونة لتفسير الظواهر الفيزيائية المختلفة. وهنا يطرح فكرة الاكوان المتعددة التي نتجت عن الانفجار الكوني ومن ثم تخضع هذه الاكوان المتعددة للقوانين الفيزيائية وحدها دون الحاجة إلى اللجوء لقوة مفارقة مسؤولة عن خلق هذه الاكوان أو تفسير حركاتها (هوكنج ستيفن & ملودينوو ليونارد: ١٩: ٢٠١٣). وهنا نرى بوضوح أن هوكنج قام بعملية تحول رئيسي في موقفه العلمي تجاه الدين فبعد أن كان في كتابه تاريخ مختصر للزمان A Brief History of Time الذي اصدره عام ١٩٨٨ لم يعترض فيه على فكرة وجو خالق ولم يعترض على المعتقدات الدينية طالما أنها لا تتدخل في التفسير العلمي للكون، وأن الإيمان بوجود خالق لا يتناقض مع العلم. عاد وعدل من موقفه في كتاب التصميم العظيم بقوله أن الكون لا يجب أن يتضمن فكرة

وجود خالق له. وهنا نجد أنه ارتد من الموقف المتعلق بعلمنة العلم إلى موقف أشد صرامة فلم يكتفي بموقف المنهجية الطبيعية ولكنه اتخذ موقف الإلحاد للتعبير عن العلاقة بين النظرية العلمية والدين. فهوكنج ذهب أبعد من شارلز دارون الذي لم ينكر وجود الإله ولكنه اتخذ موقفا متشككا Agonistic وليس إنكارا تاما Atheist.

٣-٢-٤ الهندسة الوراثية وعلم الأجنة والخلايا الجذعية:

٣-٢-٤-I الهندسة الوراثية:

وأخيرا نتناول الآن قضية علمية هامة تؤكد فكرة الاستقلال بين العلم والدين، تلك القضية المتعلقة بمشروع الجينوم البشري والهندسة الوراثية Genetic Engineering. ولهذا فسوف نتناول بالتحليل في هذا الجزء قضيتين مرتبطتين معا: إمكانية تعديل الصفات البشرية من أجل تحسين النسل البشري بالإضافة إلى قضية الأجنة وهل ينظر للجنين باعتباره شخص أم أنه كائن حي ومدى إمكانية استخدام أنسجته لإجراء مزيدا من التجارب لتحسين السلالة البشرية. فعملية الهندسة الوراثية هي تلك العملية التي بمقتضاها يتم التعامل مع المادة الوراثية أو ما يعرف ب DNA حيث يتم التعديل الوراثي من خلال وسائل تقنية مختلفة أما بالتعامل مباشرة مع الجين داخل الخلية أو عن طريق نقل الجين وإعادة حقنه مرة أخرى. لاشك أن التقدم في مجال البيولوجية الوراثية فتح أمام العلماء مجموعة من التساؤلات المشروعة علميا كتلك المتعلقة بالتحسين الوراثي للإنسان Human Genetic Enhancement مثل تأخير مرحلة الشيخوخة لدى الإنسان، أو زيادة نسبة الذكاء في الأجنة، أو إضافة مجموعة من الصفات الفيزيائية تميز عرق بشري عن عرق آخر، بالإضافة إلى تحديد لون العين ومعالجة الأمراض الوراثية المزمنة كأمراض الدم والسمنة وغيرها التي تسبب مشاكل صحية للإنسان. (انظر الخلف، موسى: ٢٠٠٣، ١٨٤ أيضًا البقصمي، ناهدة: ١٩٩٣: ٧٥-٩٠) وهنا تطرح قضية مشروعية العلم واستحقاقه لتناول تلك القضايا التي تتعارض مع النصوص الدينية. وهنا يسعى العلماء إلى المضي قدما نحو الهندسة الوراثية ومحاولة تحسين الصفات الوراثية الإنسانية بصرف النظر عن النصوص الدينية التي ترى أن الإنسان خلق في حالة كاملة وعلى صوره الله. وعلى الرغم من الانتقادات التي توجه للقائمين بهذه الأبحاث، فانهم ماضون في البحوث مؤسسين قناعاتهم على ما أشرنا إليه بالمنهجية الطبيعية التي ترى أن البحث العلمي ليس له شأن بالفرضيات الدينية التي قد تعيق البحث العلمي.

٣-٢-٤- II علم الأجنة والخلايا الجذعية:

أما القضية الأخرى متعلقة بعلم الأجنة Embryology وامكانية استخدام الخلايا الجذعية stem cells للأجنة Embryo في تطوير البحث العلمي. فخلايا الأجنة تفتح إمكانات ممكنة وواسعة لتحسين خلايا الأشخاص البالغين أو استبدالها إذا ما تعرضت لتلف نتيجة حادث أو مرض مثل أمراض السكر، والأزمات القلبية ومتلازمة باركنسون أو ما يعرف بالشلل الرباعي والإصابات في النخاع الشوكي. (Suter, D. M, Krause,H. K: 2006, 413).

وعلى الرغم من أهمية هذا المجال البحثي فإن ثمة معوقات تحذر من هذه التطبيقات في مجال الأجنة الإنسانية. فهذه المعوقات تعتمد على إشكاليات أخلاقية وقانونية ثم يليها المعوقات الدينية بتحريم هذه التجارب على الأجنة. وتستند هذه الإشكاليات حول التساؤل ما إذا كانت خلايا هذه الأجنة تعد شخصا أو وجودا كامنا للشخص individual وهل تنطبق على هذه الأجنة الحقوق القانونية التي يجب أن تتوفر للشخص البالغ؟ بالإضافة إلى المعوقات المتعلقة بأن خلايا الأجنة لديها روح وينطبق عليها ما على الجنين المكتمل النمو من حماية ومحافظة على حياته لأنها وهب لها الروح؟ ومن ثم فإن العلم المعاصر -في هذه القضية- يقف موقفا صعبا فعليه الاختيار بين بديلين أخلاقيين على النحو التالي:

١- أن يرفع المعاناة المرضية عن الأفراد البالغين

٢- أن يحترم قيمة الحياة الإنسانية (على أساس أن embryo) أو الانقسام الأولي للخلايا في أنبوبة الاختبار مكافئ لحياة فرد.

ففي حالة البحث العلمي المتعلق بخلايا الأجنة فمن الصعب اتباع كلا البديلين الأخلاقيين، فإما أن يحطم الخلية الأولى للأجنة، وهو بذلك ينهي حياة ممكنة لمشروع فرد محتمل ويتخلى عن الحلم برفع معاناة المرضى الذي باستطاعة الأبحاث المتقدمة في هذا المجال أن تصل إلى نتائج إيجابية في علاجهم، والعكس صحيح. في الحقيقة هذه الإشكالية هامة لأنها ستقود إلى إحداث تغيير هام وجوهري في طريقة تناول العلم للقضايا العلمية من حيث أن العلم لم يعد بمثابة اللامتغير اللامشروط أو الثابت، لأنه في هذه الحالة أصبح متغيرا لثابتا جديدا يمثل هنا الجانب القانوني- الأخلاقي. كما يتضح لنا من الشكل رقم (٧):

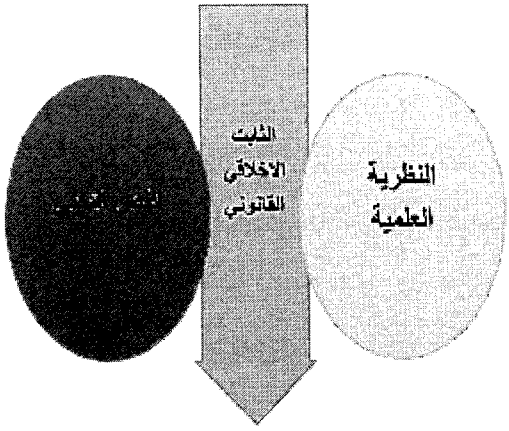

فالزعم هنا يدور حول الفكرة القائلة بانه لولا الجانب الأخلاقي- القانوني وحده باعتباره ثابتا ينظم شكل علاقة البحث العلمي بالظاهرة المدروسة ويقيد البحث في مجال الأجنة البشرية. فما يحدد العلم ليس النص الديني باعتباره ثابتا ولكن في حقيقة الأمر الجانب الأخلاقي - القانوني. ويزعم هذا البحث أنه مع تطور العامل الحضاري- الثقافي سيتمكن البحث العلمي من تناول قضايا شائكة كتلك الخاصة بخلايا الأجنة وتطبيقها في مجال الإنسان بدلا من اقتصارها في المرحلة الراهنة على خلايا الفئران والتطبيقات عليها بزعم أن الشبه بين وظائف وتركيب الخلايا بينهما متشابهين.

وهنا تكمن إشكالية بحثنا التي نسعى إلى طرحها وتقديم تصورا جديدا لها. أن كلا من علاقة الشمولية والتضمن من جهة وعلاقة الاستقلالية من جهة أخرى تنطويان على نقيضة dilemma باعتبار أن الدين في الحالة الأولى يمثل ثابتا رياضيا invariant قائما بذاته وفي هذه الحالة هو اللامتغير اللامشروط. بمعنى أنه يشكل العلاقات بين عناصر النظرية ويظل هو الثابت الذي لا يتغير. وكنتيجة لهذا التصور الجامد أفرزت العلاقة السابقة احتمالين فقط أما أن يتضمن النص النظرية أو أن يستبعد النص النظرية. وهذه الإشكالية تتكرر في الحالة الثانية حيث أن العلم يمثل ثابتا رياضيا قائما بذاته ويظل هو اللامشروط اللامتغير وهو أيضًا ما وضعنا أمام بديلين فإما أن تترك الباحث العلمي في حالة شك Agnosticism من جدوى الكيانات والموضوعات الميتافيزيقية في المسائل العلمية أو انكرها كليا Atheism وهي تلك الحالة التي اعتبرنها تمثل حالة من الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism. أما البديل الثاني أن تبقى على العقيدة الإيمانية للباحث العلمي دون أن يسمح لها التدخل في أبحاثه

أو الاستناد إليها في تفسير الظواهر الطبيعية وهي ما أطلقنا عليها علمنة العلم secularization of science.

ولهذا فإن هذا البحث يطرح العامل الثقافي والحضاري باعتباره ثابتا ينظم شكل العلاقة بين كلا من النص الديني والنظرية العلمية. فما يميز هذا الثابت الجديد إمكانية تقسيمه إلى مستويات متعددة ومختلفة من حيث الدرجة، كما أنه يتصف بالمرونة الأمر الذي يمكنه تشكيل العلاقة بين النص الديني والنظرية العلمية بطريقة تحولهما من اعتبارهما اللامشروط اللامتغير إلى اعتبارهما مشروط ومتغير Conditional changeable بالإشارة إلى العامل الحضاري-الثقافي كما سنناقش هذه المسألة الآن.

٤-١ علاقة التقاطع التبادلية:

سنسعى إلى إيضاح أشكال أخرى للعلاقة بين النص الديني والنظرة العلمية تتصف بانها أكثر مرونة وتؤسس للانسجام والتوافق بينهما. قد أشرنا أن السبب الرئيسي في عدم الانسجام بينهما يرجع إلى اعتبار كلا منهما ثابتا invariant فهو شرط وهو من يؤسس شكل العلاقة. وفي ضوء هذا التصور الخاطئ وجدنا انعكاس هذا الثابت اللامشروط على كلا من رجال الدين الذين استمدوا سلطتهم من سلطة النص اللامشروط وسمحت لهم الاعتراض على القوانين والنظريات العلمية بل والحكم على عقيدة الباحثين. وفي المقابل نجد العلماء يتمسكون بسلطة العقل الذي قادهم لهذه الاكتشافات. ولهذا كان البحث عن لامتغير جديد لإحداث نوعا من التوفيق بين النص الديني والنظرية العلمية. ويظل السؤال ما هو هذا اللامتغير وما هي طبيعته وخصائصه؟

لقد أشرنا في الشكل رقم (٦) أن الثابت الذي يحدث نوعا من التقارب بين العلم والنص الديني هو العامل الأخلاقي-القانوني Ethical-Legislative فهل يمكنه إحداث الانسجام بينهما؟ اعتقد- من وجهة نظر النموذج الذي تتبناه هذه الدراسة- أن العامل الأخلاقي-القانوني يمثل نوعا من الانسجام أطلق عليه انسجاما اضطراريا أو External Obligatory Reconciliation (EOR) من ثم فهو انسجاما مفروضا من الخارج لإحداث التوافق المطلوب. بينما ما يسعى إليه هذا النموذج المقترح البحث عن ثابت invariant يكون نابعا من الداخل ولديه القدرة على إحداث التوافق بينهما وهو ما أطلق عليه الانسجام الداخلي التلقائي Internal Spontaneously

Reconciliation (ISR). ويتمثل هذا الثابت في العامل الحضاري- الثقافي باعتباره أعم وأشمل من الثابت الأخلاقي- القانوني، كما أنه يأتي بطريقة تلقائية ليحدد شكل العلاقة بين العلم والنص الديني دون الحاجة أن يفرض بطريقة إلزامية. ويجب الإشارة هنا إلى أن الهدف من هذا الإيضاح هو عملية تحليل للثابت الجديد. ولهذا كان ضروريا القيام بعملية تفكيكك لهذا الثابت للكشف عن ماهيته ثم إعادة تركيبه من أجل مزيدا من التحليل والإيضاح. وهذه الثنائية بين التوافق الاضطراري الخارجي (EOR) وبين التوافق التلقائي الداخلي (ISR) ينتج عنها شكلين من أشكال العلاقة بين الثابت الجديد من جهة والعلم من جهة أخرى:

أ- أن يكون العلم موجها نحو الظواهر الطبيعية والفيزيائية وليس له علاقة بالإنسان باعتباره موضوعه المباشر كالفيزياء والفلك وهنا لا يوجد ثابتا أخلاقيا- قانونيا يلزم الباحث بعدم تناول مثل هذه الظواهر الطبيعية. حيث أن الثابت هنا هو العامل الثقافي- الحضاري ذاته الذي يمثل شرط العلاقة. وهنا تكون العلاقة بين العلم والنص الديني متوقفة على طبيعة الثابت ودرجته كما سنوضح هذا لاحقا. بمعنى أن افتراض كيانات مفارقة أو عدم افتراضها، ودرجة تدخلها في تفسير الظواهر- كما هو وارد في النصوص الدينية- أو عدم تدخلها متوقف على درجة الثابت. هذا التوافق بين العلم والدين يتم في إطار البنية ISR وفي ضوء الثابت C.

ب- أن يكون العلم موجها نحو الإنسان كأبحاث الاستنساخ، التبرع بالأعضاء، التحول الجنسي، وبنوك الأعضاء والخلايا الجذعية وهنا يظهر الثابت الأخلاقي- القانوني ليس باعتباره منفصلا عن السياق الحضاري والثقافي للمجتمع ولكن باعتباره جزءا مكونا من بنية المجتمع. ومن ثمة تتحدد طبيعة العلاقة بين العلم والنص الديني في ضوء الثابت C وفي إطار البنية EOR. كما يتضح في الشكل (٨-١) الذي يوضح العلاقة بين العلم والدين في ضوء البنية، EOR وقيمته =١ والشكل (٨-٢) الذي يوضح العلاقة بين العلم والدين في ضوء البنية ISR وقيمته =١.

الشكل (٨-١)

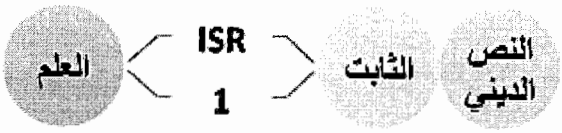

الشكل (٨-٢)

وعند مقارنة نموذج ISR وEOR سنجد أن المجتمع الغربي لا يواجه مشاكل مع النموذج الأول ولكنها في الحقيقة تواجه مشاكل مع النموذج الثاني والسبب في ذلك يرجع إلى المستوى الثقافي والحضاري الذي وصل إليه المجتمع الغربي. وكما أوضحنا أن المشكلة في النموذج EORلا تتمثل في الدين ذاته ولكن في محاذير من العبث بالإنسان لدواعي أخلاقية في المقام الأول. بينما تواجه المجتمعات الإسلامية مشاكل مع كلا من ISR وEOR وهذا يرجع إلى المستوى الثقافي- الحضاري الذي وصل إليه العلم في تلك المجتمعات. والسؤال الذي يجب أن يطرح الآن هل النموذج ISR و EOR يمثل نسقا مغلقا أم نسقا مفتوحا في المجتمعات الإسلامية؟ وهل النموذجان السابقان يمثلان درجة واحدة يخضع لها جميع المجتمعات الإسلامية أم أنه له درجات متنوعة بتعدد المستوى الثقافي- الحضاري؟ نجيب أولا على السؤال الثاني بأن المجتمعات الإسلامية لا تخضع لدرجة واحدة ثابتة من EOR وISR ولكنها تخضع لدرجات متعددة وفقا للمستوى الثقافي-الحضاري للمجتمع الإسلامي. ولهذا تقسم هذه الدراسة النموذج ISR إلى ثلاثة مستويات على النحو التالي:

١- مستوى ثقافي- حضاري بسيط ويرمز له بالقيمة ١

٢- مستوى ثقافي- حضاري متوسط ويرمز له بالقيمة ٢

٣- مستوى ثقافي- حضاري متقدم ويرمز له بالقيمة X باعتباره مجهولا أو حالة افتراضية لم تصل إليها المجتمعات الإسلامية لها حتى هذه اللحظة الراهنة.

فعند مقارنة الثابت الحضاري - الثقافي في كلا من المجتمعات الغربية والإسلامية سنصل إلى ثلاثة مستويات، يتوقف تأويل النص الديني فيها على قيمة الثابت الحضاري- الثقافي الذي يشغله هذا المستوى. وهنا يجب ملاحظة أن النص الديني أصبح نصا مشروطا ومتغيرا في ضوء المستوى الثقافي- الحضاري الذي يندرج فيه النص الديني. وهنا نرى أن ثمة تحول ابستمولوجي ومنهجي قد طرأ على النص الديني وتأويله فبدلا النظر إليه كشرط لفهم النظرية والحكم عليها أصبح مشروطًا بحركة تطور المجتمع وثقافته.

العامل الحضاري الثقافي في المجتمعات الإسلامية	نمط النص الديني السائد	قيمة المستوى	خصائص النمط	العامل الحضاري الثقافي في المجتمعات الغربية	نمط النص الديني السائد	قيمة المستوى	خصائص النمط
المستوى الأول	الاصولي المحافظ Conservative-Fundamental Interpretation	١	التشدد اللاتسامح الانغلاقية	المستوى الأول (ضعيف)	الأصولي- المحافظ Conservative-Fundamental Interpretation	١	التشدد اللاتسامح الانغلاقية
المستوى الثانى (متوسط)	المعتدل Moderate Interpretation	٢	الاعتدال التوافق التسامح القابلية للفهم المرونة المستوى الثاني (متوسط) المتحرر وقد يطلق عليه التأويل النقدي	المستوى الثانى (متوسط)	المتحرر وقد يطلق عليه التأويل النقدي- العقلاني- الإنساني Liberal Humanistic-Critical and Rationalistic Interpretation	٤	الاعتدال التسامح القابلية للفهم المرونة العقلانية النزعة الإنسانية
المستوى الثالث (متقدم)	X	X	X	المستوى الثالث (متقدم)	التقدمي ويطلق عليه التأويل الذي يضع في حسبانه العدالة الاجتماعية ومدعم بقرارات سياسية وقانونية Progressive Interpretation	٦	العدالة المساواة الاجتماعية البعد القانوني

الشكل (٩) يوضح مستويات الثابت الحضاري- الثقافي وخصائصه وعلاقته بالنص الديني

هنا نستطيع ملاحظة وجود المستويات الثلاثة للعامل الثقافي-الحضاري في البلاد المتقدمة حضاريا وثقافيا ومن ثم فإن المستوى الثالث له وجودا فعليا بينما لم تصل إليه البلاد الإسلامية ولهذا رمزنا إليه بالقيمة X وسينعكس بالضرورة على النص الديني كما سيتضح لاحقا.

ويجب الإشارة هنا إلى اختلاف القيم في كل مستوى حضاري- ثقافي في البلاد الإسلامية عنها في البلاد الغربية والسبب في ذلك يرجع إلى الاختلاف الكيفي qualitative difference. ولهذا تشارك كلٌ من المجتمعات الإسلامية والغربية في قيمة المستوى الضعيف بالقيمة (١). بينما سنجد تباينا في القيمة عند المستوى الثاني حيث أخذ المستوى الثاني في البلاد الإسلامية القيمة (٢) بينما أخذ ضعف القيمة (٤) عند المستوى الثاني. والسبب في ذلك يرجع إلى الاختلاف الكيفي بين مفهوم التأويل الوسطي Moderateوالتأويل المتحرر Liberal لان استخداماته ومعانيه تختلف من حيث الدرجة والتطبيق مقارنا بالبلاد الغربية. بينما المستوى الثالث فأخذ القيمة (X) وكذلك النص الديني السائد عند هذا المستوى أخذ نفس القيمة (X) لأنه يمثل حالة افتراضية من التقدم الحضاري- الثقافي لم تصل إليها البلاد الإسلامية. بينما أخذ نفس المستوى القيمة (٦) للإشارة إلى تباين المستوى الثاني عن الثالث حيث أن المستوى الثالث يعتمد على الرؤية القانونية والأخلاقية والعدالة الاجتماعية كمحددات للتعامل مع النظرية العلمية وليس الدين بمعناه التقليدي. فهو تأويل يتضمن بعدا قانونيا وسياسيا ولهذا أطلق عليه تأويلا تقدميا. Progressive Interpretation وهو الذي أشرنا إليه سابقا كمحاولة للتوفيق بين النص الديني والنظرية العلمية في ضوء النموذج EOR

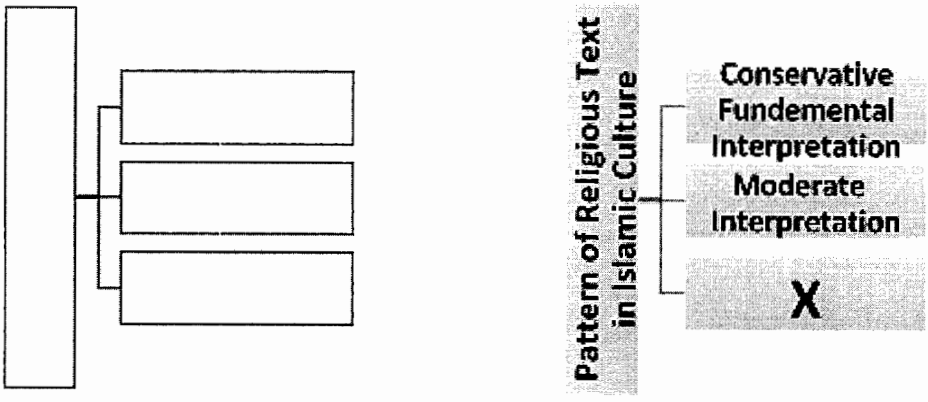

الشكل رقم (١٠-١) والشكل (١٠-٢) يوضح المستويات الثلاثة للنص في الثقافة الإسلامية والغربية

دعنا الآن نطبق هذ الفهم على علاقة التقاطع التبادلية لإيضاح كيف ينعكس المستوى الثقافي -الحضاري على طبيعة العلاقة بين العلم والنص الديني وكيف يمكن أن تتحقق تلك النزعة التوافقية بينهما.

٤-١-١ قضية التعدد الجنسي وعلاقتها التحول الجنسي:

تعد هذه القضية من القضايا الشائكة التي أثارت نوعا من الجدل والنزاع بين كلا من العلم والنص الديني إذا ما تناولناها في ضوء علاقتي الشمولية والتضمن أو علاقة الاستقلالية. ولكننا سنحاول أن نفهم قضية التحول الجنسي في ضوء الثابت الثقافي الحضاري.

في البداية -نظرا لأهمية القضية- يجب أن نميز بعض المفاهيم المتداخلة حتى نستطيع أن نرفع اللبس والذي جعل كثيرا من رجال الدين والعامة يحكمون على القضية في غياب بعض الحقائق العلمية بخصوص المتحولين جنسيا. أولا يجب أن نميز بين مفهوم Transgender أو مفهوم Transsexual وبين المتعدي جنسيا جينيا Genetic Male, Female. فكثيرا من الأفراد يستخدمونهما بمعنى واحد. فالمتعدي جنسيا هو شخص يعاني من اضطراب نوعي. Gender Dysphoria فالشخص المتعدي جنسيا هو شخص لا تتماشى أعضائه التناسلية مع تركيبه الفيزيائي ففي العادة يتضمن تركيبات من كلا الجنسين. بينما الذكر الجيني هو شخص لديه Y كروموسوم واحد أو أكثر في الحامض النووي. والعكس الأنثى الجينية غير حاصلة على Y كروموسوم في حامضها النووي. ونتيجة لهذه الاكتشافات العلمية فإن الدول المتقدمة تضع في شهادة ميلاد الطفل ثلاثة اختيارات للنوع ذكر أو أنثى أو غير محدد. فشعور المرء أنه ينتمي إلى نوع أو جنس غير الذي يبدو عليه ظاهريا ترجع إلى عدم وجود Y، وقد يرجع السبب في ذلك الشعور إلى تركيبين صغيرين في المخ تحدد النوع ذكري أو أنثوي. ويطلق عليهما اصطلاحيا «forceps minor» والتي تعد جزءا من Corpus callosum الجسم الثقني وهي مجموعة ألياف عصبية توجد في الشق الطولي للمخ وهي المسؤولة عن ميل المرء لنفس الجنس. (Davatzikos,C: 1998,637 & Ardekani,B: 2010, 2517)

كما أن هناك حالات لأفراد تركيبها الفيزيائي أنثى ولها مواصفات الأنثى من حيث الشعر والصدر وتم تربيتهم كأنثى ولكن عندما تأخر سن الطمث وعندما خضعوا للتحليل تم اكتشاف انهن يحملن الكرموسوم Y الذي يحدد النوع وهم بذلك يعدوا -من وجهة نظر العلم-

إنات ظاهريا بأعضاء تناسلية أنثوية ولكن جنيا Genetically فهن ذكور. وفي ضوء هذا الاكتشاف العلمي فإن مقولة المتعدين جنسيا عندما يوصفون أنفسهم بأنهم ذكور اسرى في ذهن امرأة أو العكس يبرر هذا الاكتشاف العلمي. فهذه المعاناة لا يدركها ولا يفهم طبيعتها سائر أفراد المجتمع ورجال الدين. وهنا طرحت قضية التحول الجنسي كمنهجية جديدة لعملية التصحيح أو لعملية رد مثل هؤلاء الأفراد إلى جنسهم أو نوعهم الجيني. وهنا تكمن الإشكالية. والسؤال الآن ما هو موقف الدين ونصوصه من مسالة التحول الجنسي sex transformation؟ فهل التحول الجنسي أمرا ضروريا للمرء الذي يعاني نقص أو انعدام في هرمون التستوستيرون المسؤول عن الذكورة أو الإناث اللاتي جينهن ذكري. كيف ينظر الدين لهؤلاء الأفراد الذين قاموا بالفعل بعملية تحول جنسي أو تصحيح جنسي؟

فالإجابة على السؤال السابق مرتبطة بما أوضحناه في الجدول (٨) حيث يتوقف مستوى تأويل النص على حسب المستوى الثقافي-الحضاري. فعلى سبيل المثال ينظر رجال الدين- في المستوى الأول- للمتحولين بأنهم يخالفون خلق الله و إرادته، فهم بذلك فاسقين لانهم يفسدون في الأرض فهم اتباع الشيطان لانهم يغيرون خلقة الله التي خلقهم عليها ولا تبديل لخلق الله. وسنرى رجال الدين في المستوى الثقافي- الحضاري في كلا من المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية يتصف تأويلهم للنصوص الدينية بالتشدد والانغلاق وبالتالي تنتفي صفة التسامح في تأويلاتهم الدينية. ولعل أبرز مثال لهذا قصة سيد طالب الطب الذي تحول إلى فتاة تدعى سالي بعد إجراء عملية تصحيح جنسي عام ١٩٨٨ والمعاناة التي واجهتها لإثبات حقوقها كأنثى وخاصة بعد صدور فتوى من الأزهر بانها ليست ذكرا ولا أنثى. ففي طبيعة الفتوى والحكم من قبل رجال الدين سنجد أن التاويل ذاته ينطوي على التشدد Rigidness ومن ثم فهو غير متسامح ويتصف بالانغلاقية closeness and intolerantable يتصف وهنا يمكن التعبير عن هذه العلاقة في الصيغة التالية. إذا رمزنا للعلم بالرمز Sوالنص الديني بالرمز R في ظل وجود الثابت الحضاري- الثقافي C فنصل إلى تلك المعادلة أن S= CR وتفسير ذلك أن قيمة العلم ومكانته تتناسب طرديا بقيمة كلا من العامل الثقافي والحضاري وقيمة التأويل الديني. ويمكن التعبير عن هذه العلاقة في صورة الشكل التالي:

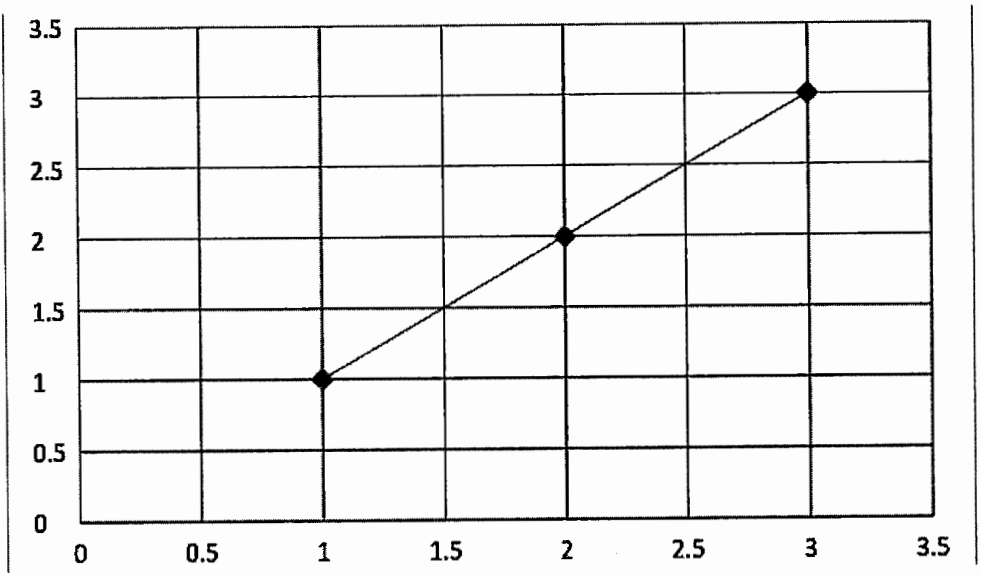

شكل رقم (١١-١) يوضح علاقة العلم بالنص الديني عند مستوى ثقافي -حضاري بقيمة ١

ولعل السبب في هذا التفسير يرجع إلى أن الوعي بقيمة العلم منخفضة وفي ظل مستوى ثقافي يشجع على الموروث والتقليد والتبعية ويرجع إلى انصراف العلماء عن الاطلاع على الحقائق العلمية الحديثة. إذا ما انتقلنا إلى المستوى الثاني سنجد أن ثمة مرونة في فهم وتأويل النص الديني وإحراز نوعا من التقدم الكيفي لطبيعة التأويل بما يتناسب وارتفاع مستوى الوعي الثقافي-الحضاري. فعلى سبيل المثال في المجتمعات الإسلامية التي قد وصلت لمرحلة متقدمة- إلى حد ما - من الوعي الحضاري. تأتي الفتاوى وقد اتصفت بالمرونة والقابلية للفهم. حيث فتح الطريق لأخذ آراء المتخصصين في هذا المجال من الأطباء وعلماء النفس وفي ضوء هذه الآراء المتخصصة تصدر الفتوى. ولا شك أن مقارنة الفتوى الصادرة من رجال الدين الآن -بخصوص المتحولين جنسيا- وبين تلك الفتوى التي قدمناها في المثال السابق- يعكس نضوجا وزيادة في الوعي من قبل رجال الدين نحو النتائج التي كشف عنها الطب في هذه القضية. فمقارنة فتوى اليوم بالأمس فبعد مرور ربع قرن من اكتشاف أول حالة للتحول الجنسي أصبح الأمر أكثر قبولا اجتماعيا وأن كانت درجة التسامح تظل في أدنى مراحلها عند هذا المستوى كما يظهر في الدول الإسلامية وأعلاها متمثلة في الفتاوي الصادرة من مجلس الإفتاء الأوروبي للمسلمين الذين يعشون في مجتمعات غربية. حيث نجد الفتوى الصادرة تدور أغلبها

حول مفهوم التصحيح الجنسي trans helpوليست التحويل sex transformationحرصا على تنظيم المجتمع وضبطه أخلاقيا ودينيا. وهنا نستطيع ملاحظة أنه كلما ارتفع المستوى الثقافي- الحضاري- ارتفع معه الوعي الديني الذي ينعكس على طبيعة الفتوى المقدمة من رجال الدين. ولهذا يمكننا تمثيل هذا الفهم بيانيا في صورة المعادلة التالية:

S=2R حيث أن S ترمز للعلم وR ترمز للنص الديني والثابت هنا المستوى الحضاري في الدول الإسلامية وقيمته ٢.

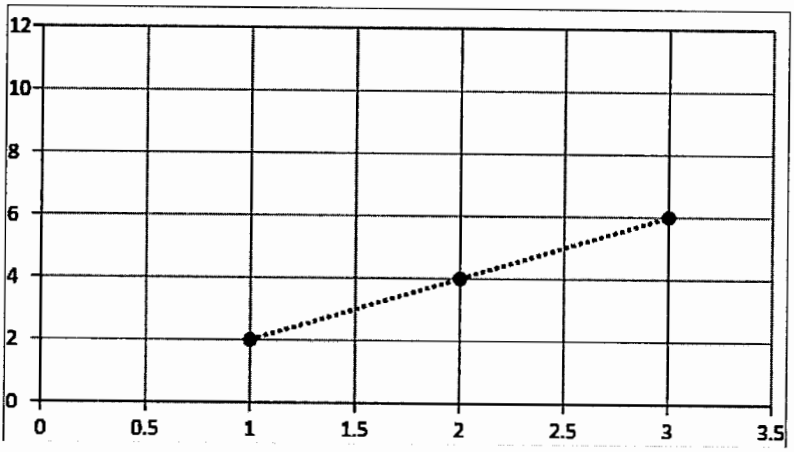

شكل رقم (١١-٢) يوضح علاقة العلم بالنص الديني عند مستوى ثقافي - حضاري بقيمة ٢ في الدول الإسلامية

وفي المقابل إذا ما تناولنا لعلاقة العلم بالنص الديني في المستوى الثقافي- الحضاري في الدول الأوروبية سنجد أن ثمة تنوعا كيفيا وكميا، فكيفيا من حيث طبيعة التأويل ومرونته ودرجة تسامحه، وكميا في قيمة العامل الثقافي. فبالإضافة إلى تمتعه بالمرونة والقابلية للفهم وتسامحه مثل تقديم استشارات نفسية وطبيبة للذين يعانون اضطراب النوع الجنسي. فيقدم لهم نوعا من العلاج الاجتماعي Social Therapy والذي يسمح لهم بالتعايش مع الجنس الآخر ومشاركتهم في الأكل والملبس حتى يقدم لهم نوعا من التهيئة النفسية لقبول نوعهم ومن ثم جنسهم الجديد. وهي أنواع من الاهتمام بهذه الحالات لا تتوفر في نفس المستوى في البلاد الإسلامية. بالإضافة لهذا النوع من العلاج النفسي والاجتماعي، فالمستوى الثقافي المتاح في الدول الغربية يزيد على نظيره في الدول الإسلامية بالاتساع فيشمل رؤية عقلانية Rationalisticوإنسانية Humanistic تسمح باستيعاب حالات أخرى لم يشملها العامل الثقافي في الدول الإسلامية

كحالات الانحراف الجنسي على سبيل المثال، وحق الشخص الذي يحمل النوع X في الزواج وغيرها من القضايا الأخرى التي سنوضحها لاحقا. ويتضح هذا التنوع الكمي الكيفي في صورة المعادلة التالية S=4R بمعنى أن العلم يتقدم طرديا بتقدم كلا من التأويل الديني والمستوى الثقافي الحضاري. وأن طبيعة النص ودرجة تأويله تتحسن بتحسن شروط العلم وتحسن المستوى الثقافي والحضاري. ويمكننا تمثيل ذلك بيانيا على النحو التالي:

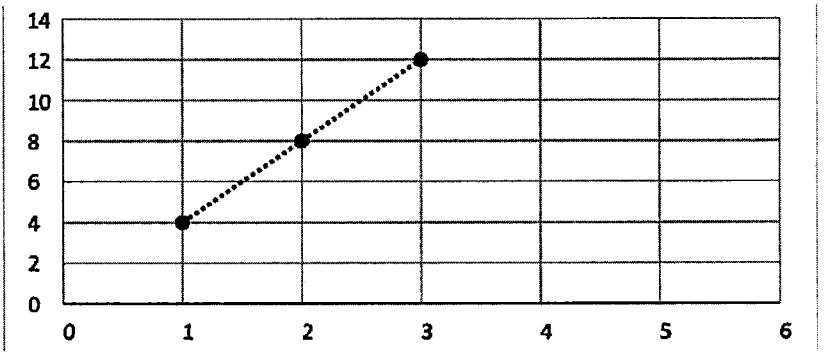

شكل رقم (١١-٣) يوضح علاقة العلم بالنص الديني عند مستوى ثقافي - حضاري بقيمة ٤ في الدول الغربية

دعنا الآن نناقش طبيعة النص المؤول عند المستوى الثقافي والحضاري الثالث فيما يتعلق بقضية المتعدد جنسيا والتحول الجنسي.

٤-١-٢ المستوى الثقافي- الحضاري وعلاقة التحول الجنسي والمثلية وعلاقتها بالدين:

أشرنا سابقا أن الدول الإسلامية لم تدخل بعد في هذه المرحلة المتقدمة من الوعي الثقافي ولهذا فانه يظل احتمالا مستقبليا قائما. بينما المستوى الثالث يوجد في الحضارة الغربية. وقد أشرنا سابقا أن العلاقة هنا تنتظم في إطار قانوني- أخلاقي وهو الذي ينظم العلاقة بين العلم والدين ويفرض نوعا من الانسجام بصورة اضطرارية وباعتباره مفروضا من الخارج بسلطة القانون EOR. فالاهتمام هنا منصبا على حقوق المتحولين جنسيا والمتعددين جنسيا بالدفاع عن حقهم بالمساواة الاجتماعية مع الأشخاص الطبيعيين. وترفض فكرة الطرد من العمل أو الجامعات بالنسبة للطلاب وتسعى إلى إصدار التشريعات التي تحمى هذه الفئة من الأفراد. بالإضافة للضغط على الحكومات لإصدار قوانين ضد التمييز نتيجة النوع أو ضد المثليين جنسيا والتساؤل حول حقهم في الحصول على منح حكومية لاستكمال دراستهم. لا يتوقف

الأمر عند هذا الحد ولكن أيضًا تلزم السلطة القانونية وزارتي الصحة بتقديم الرعاية لهم بل ووزارة الشئون الاجتماعية أن تقدم لهم مساعدات مالية لازمة لإجراء جراحات تكميلية أو لشراء أنواع من الشعر المستعار الطبيعي -حتى لا يشعروا بنوع من التمييز ضدهم كما يحدث في أوروبا. وقد يشمل أيضًا تقديم دعوى قضائية للمطالبة بتعويض مادي إذا ما شعروا بنوع من التحرش Harassment اللفظي بكلمات ضدهم أو حتى بنوع من التمييز المعنوي المتمثل بطريقة التعامل أو النظرة التي تعكس تمييزا مقصودا لهم. هذه بعض القضايا التي يتناولها هذا المستوى وهي تسعى للتوفيق بين الاكتشافات العلمية والسياق الثقافي ومحاولة فرض الانسجام بين الدين والعلم من خلال القانون باعتباره أحد مكونات العامل الثقافي-الحضاري. وبناء على هذا التصور يمكننا فهم العلاقة بين العلم والدين في ضوء الثابت الثقافي « القانون» الإلزامي. دعنا نرى شكل العلاقة بين S وR في ضوء اللامتغير، المستوى الثالث، وقيمته ٦ وهي قيمة أكبر قيمة اللامتغير الثقافي عند المستوى الثاني. كما في الشكل التالي:

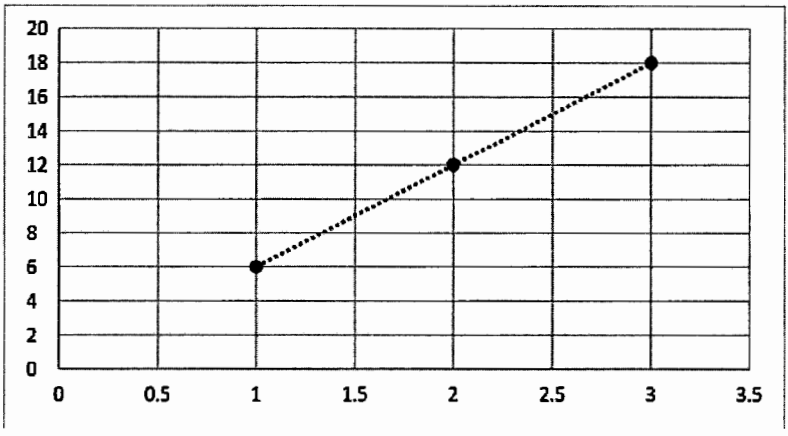

شكل رقم (١١-٤) يوضح علاقة العلم بالنص الديني عند مستوى ثقافي - حضاري بقيمة ٦ في الدول الغربية

في الحقيقة يجب عدم الخلط بين كلا المفهومين التعدد الجنسي والمثلية الجنسية. فكلما انخفض المستوى الثقافي كان ثم خلط بين المفهومين باعتبارهما يشيران إلى نفس المعنى، وعلى النقيض كلما ارتفع المستوى الثقافي وتقدم العلم كلما أسهم ذلك في التمييز بينهما على حد واضح. فأغلب رجال الدين الليبراليين والمعالجين النفسيين رأوا أن الشخص المتعدد جنسيا هو الشخص الذي يعاني من اضطراب في النوع يتعارض مع الجنس الممنوح له عند الميلاد. بينما

الشخص المثلي homo هو من يعرف من خلال جنسه الممنوح له والذي يشعر بانجذاب نحو الافراد من نفس نوعه. وهنا تكمن الإشكالية فالفرد الذي يولد ذكرا ويعاني من اضطراب النوع ويقوم بعملية تصحيح أو تحول جنسي يجد نفسه منجذبا للذكور أو قد ينجذب إلى النساء بحكم نوعه وبحكم جنسه الجديد فيصير مثليا. وهذا ما ينطبق على الأنثى التي تولد كأنثى وتعاني من اضطراب النوع. في المقابل يرى المحافظين أن المتعدد جنسيا هو شخص منحرف ورؤيتهم له سلبية، كما انهم يروا ضرورة تحريم عمليات التصحيح الجنسي ويرفضون رفضا قاطعا فكرة الزواج بالمتعددين جنسيا أو من قام بعملية تصحيح ويقفون ضد كل محاولة لتشريع قانونا ينادي بحقوق هؤلاء الأشخاص. أن انغلاقية هؤلاء الأفراد وارتباطهم بحرفية النصوص الدينية هو ما يجعلهم غير قادرين على تفهم الاضطراب النوعي، فهم يروا أن شخص كهذا هو شخصا مثليا إذا ما أقام علاقة جنسية بين ذكر آخر، في حين أنه إذا ما أقام علاقة جنسية مع أنثى فهو شخصا سليما أو heterosexual أو متباينا جنسيا. ففي الحقيقة نستطيع أن نرى أن قضية التحول الجنسي ترتبط بمفهوم المثلية الجنسية أو الثنائية الجنسية bisexual.

هذا الفهم يتوقف على المستوى الثقافي والحضاري للمجتمع وانعكاسه على الوعي لديهم ورؤية كلا فريق للمستوى الثقافي- الحضاري الذي يخضع له مجتمعه. ففي المستوى الأول سنجد أن ثم خلط في المفاهيم، بالإضافة لتشدد تأويل النص وانغلاقه. فهذا الفريق يرى أن المثلية هو سلوك يختاره الفرد بإرادته ومن ثم فهو سلوك قابل للتعديل والتغيير ولهذا يرى انصار هذا الفريق ضرورة العلاج لمعالجة هذا الانحراف، دون الوضع في الاعتبار الجوانب النفسية والفسيولوجية للمثلين. بينما يرى أنصار الفريق المرن أو الليبرالي للنص أن المثلية هي سمة لأنها مرتبطة بأسباب جينية ومن ثم فهي تمثل سلوكا دائما وغير قابل للعلاج. ولهذا سنجد أن قضية المثلية هي من القضايا التي يمكن أن نرى من خلالها تنوع استجابات رجال الدين والعلماء بقبولها أو برفضها اعتمادا على السياق الثقافي الحضاري ودرجة هذا المستوى. فتتنوع الاستجابات برفضها باعتبارها خطيئة وعدم التسامح مع المثليين فالنص الديني يمثل في هذه حالة ثابتا غير متغير أو القبول التام لهذه القضية وأنها قضية ذات طبيعة علمية إنسانية human-scientific nature وأن لا دخل للنص بتناولها. وأنها قضية مثل سائر القضايا الأخرى كعبودية المرأة والعبودية فكما نظر إلى تلك القضايا بانها مخالفة للنصوص الدينية وأصبح الأمر مقبولا الآن كذلك الأمر بخصوص قضية المثلية. وهذه الرؤية في حالة ما أخذ العلم

باعتباره ثابتا لامتغير. وستتنوع قبول هذه القضية ودرجة قبولها اعتمادا على السياق الثقافي- الحضاري للمجتمع ذاته ودرجة الوعي لكلا من رجال الدين والعلماء، بحيث يكتسب رجال الدين الوعي اللازم لتفهم الحقائق العلمية المتعلقة بالمثلية ومن ثم فهم النص بما يتناسب مع هذه الاكتشافات. إلى أن نصل للمستوى الثالث من مستويات الثقافة وسنجد رجال الدين التقدميين progressive theologians يبحثون عن النصوص التي تدافع عن العدالة والمساواة والعناية تزامنا مع السياق القانوني السائد في هذا المستوى الثقافي- الحضاري.

٤-١-٣ المستوى الثقافي- الحضاري وقضية تأجير الرحم وعلاقتها بالدين:

تأجير الرحم أو Surrogacy هي العملية التي يتم من خلالها تخصيب بويضة زوجة بالحيوان المنوي الخاص بزوجها ثم زراعة البويضة المخصبة في رحم سيدة أخرى كنتيجة لمشاكل صحية لدى الزوجة. وفي هذه الحالة يطلق على الزوجة الأم البيولوجية أو الجنية، بينما يطلق على الأخرى الأم القانونية. وفي الواقع تجد تقنيات عديدة يمكن من خلالها الأطباء مساعدة الزوجة على أن يكون لديها طفلا من خلال الاستعانة برحم آخر. وينقسم تأجير الأرحام إلى نوعين:

١- يعرف باسم تأجير الرحم أو اصطلاحيا باسم gestational surrogacy وهي عملية تأجير الرحم من خلال بويضة مخصبة للزوجين مقابل أجر مادي أو بدون مقابل.

٢- يعرف باسم التأجير التقليدي ويعرف اصطلاحيا باسم traditional surrogacy ويعرف بالتأجير الجيني الجزئي وفيه يمكن الاستعانة ببويضة غير بويضة الزوجة egg donation وتخصب بحيوان منوي من الزوج ويتم زراعتها في الرحم الذي تم تأجيره، أو التبرع بحيوان منوي sperm donation وتلقيح بويضة الزوجة وزرعتها في الأم البديلة. أو يكون التبرع بأجنة embryo donation فائضة لدى بعض الوالدين الذين قد قاموا بعملية تخصيب ناجحة. (Imrie, S, Jadva,V: 2014,425)

نستطيع أن نرى أن الاستجابة لقضية تأجير الرحم أو الأم البديلة قضية إشكالية ولهذا تتنوع الاستجابات اعتمادا على السياق الثقافي-الحضاري. فإذا كان النص يمثل ثابتا لا متغير كانت النتيجة الرفض المطلق وتحريم هذا الفعل كما هو في حالة التضمن والاشتمال. فالنص لا يجد صعوبة في تبرير الحمل عن طريق تقنيات طفل الأنابيب In-vitro- Fertilisation (IVF) وتوافقه مع النص الديني، بينما يرفض تقنية تأجير الرحم في كليتها. وفي المقابل يذهب العلماء

إلى أنها تقنية تعطى الأمل للسيدات اللاتي فقدن القدرة على الحمل لأسباب وراثية أو مرضية انطلاقا من فكرة أن رفع معاناة المريض تمثل الغاية الأسمى وأن الدين عليه أن يتفهم تعقيدات العلم المعاصر، كما اتضح ذلك في نموذج الاستقلال. بينما نجد في إطار علاقة التقاطع التبادلية أن الاستجابة تتنوع بشكل ذي مغزى في ضوء المستوى الثقافي-الحضاري والوعي المصاحب له. سنجد أن في المستوى الأول الاستجابة ضعيفة وأن رؤية رجال الدين الاصوليين Conservative Theologians تتصف بالشدة والانغلاقية بخصوص قضية استئجار الرحم. بينما في المستوى الثاني سنجد أن الاستجابة لهذه القضية ودرجة مرونتها تتنوع وفقا لدرجة المستوى الثقافي-الحضاري ذاته. ففي الوقت الذي قد يتفهم فيه بعض رجال الدين قضية تأجير الرحم فقد يقبلها -ولكن هذا القبول مشروط بدرجة المستوى الثقافي ذاته. فالبعض يقبل فقط المعنى الأول لتأجير الرحم المعروف بمصطلح gestational surrogacy بينما المستوى الأكثر تقدما فإن رجال الدين الليبراليين Liberal Theologians يظهرون مساحة أكبر من المرونة والنزعة الإنسانية فيقبلون قضية تأجير الرحم بشقيها الأول والثاني -الذي يتضمن إشارة إلى التبرع الجيني- كما في ذلك التساؤل حول مدى صلة الأم البديلة بالزوجة أم أنه لا صلة قرابة تجمع بينهما. أما في المستوى الثالث فإن رجال الدين التقدميين Progressive Theologians يظهرون جانبا كبيرا من التعاطف والمرونة لتحقيق فكرة المساواة، بينما في هذا المستوى يظهر الجانب القانوني الذي ينظم العلاقة بين العلم والدين من خلال محاولة التقارب بينهما بفرض إلزامًا قانونيا لإحداث نوع من أنواع التوافق الذي ينعكس على كلا الطرفين. وهنا في هذا المستوى تطرح أسئلة قانونية بديلة عن الأسئلة الدينية لبحث فكرة التوافق. على سبيل المثال:

هل عملية التأجير تمت بطريق إقناع واتفاق أو هل مارس نوعا من الضغوط على الأم البديلة لقبول هذا الوضع؟ هل هي قضية تجارية أن يدفع ثمن تأجير الرحم أم فقط التزام الأسرة بدفع مصاريف العلاج والكشف الطبي والرعاية للأم البديلة؟ وما هو الأثر القانوني إذا ما تم قبول تأجير الرحم بمعناه الأول أو بمعناه الثاني الذي يتضمن التبرع الجيني؟ فهناك تباين في الاستجابة وتنظيم العلاقة بين العلم والدين بناء على القانون ذاته فبعض البلاد تشرع وتسمح بتأجير الرحم بمقابل مادي، بينما في بريطانيا على سبيل المثال يعد تأجير الرحم بمقابل مادي أمرا غير قانوني، فإذا كان المتبرع بتأجير الرحم من الأقرباء أو الأدقاء ويتم التأجير دون مقابل مادي فإن عملية التأجير تصير قانونية. Brahams,D 1987: 17 .

في حين أن بعض الدول الأخرى كجنوب أفريقيا لديها قوانين تدافع عن حق الأفراد في الإنجاب من خلال تنظيم مشروعية وقانونية الأم البديلة. على سبيل المثال فقانون الطفل الذي أدخل عليه تعديلات جوهرية في ٢٠١٠ يعطي الحق في تأجير الرحم تحت شروط -ليست دينية- قانونية كإعطاء الأم المتبرعة بالرحم الحق في إجهاض الجنين إذا ما أردات هذا بشرط أن تتكلف جميع المصاريف التي منحت لها، كما يشترط الإنجاب من قبل، ويكون لديها طفلا على قيد الحياة. كما اشترط القانون الجنوب إفريقي أن الزوجين الذين يرغبون في تأجير رحم أن يكونوا غير قادرين بصفة نهائية على الإنجاب بالطرق الطبيعية. (Christie,A: ٢٠١٢). والأمر أضحى أكثر قبولا في الكثير من الولايات الأمريكية ويتم الدفاع عن الأم البديلة وقانونيتها مراعاة لظروف الزوجين الغير قادرين على الإنجاب بطرق طبيعية. ويمكننا أن نوضح هذا التباين في الاستجابة الدينية للاكتشافات العلمية بوجه عام وللقضايا العلمية التي يكشف العلم حقائقها اعتمادا على المستوى الثقافي- الحضاري وما يتبع ذلك من رفع مستوى الوعي لدى الأفراد. وهذا الفهم يمكننا تمثليه بيانيا كما في الشكل التالي الذي يوضح العلاقة بين الاستجابة الدينية والنظرية العلمية في ضوء ثبات مستوى العامل الحضاري.

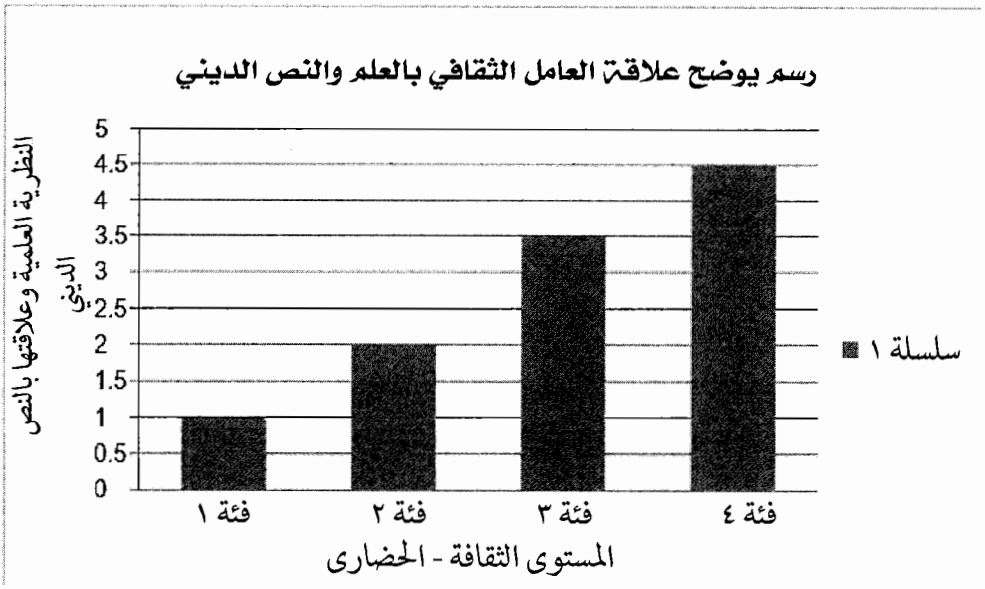

شكل رقم (١٢) يوضح العلاقة بين النص الديني والنظرية العلمية عند ثبات المستويات الثقافية.

النتائج

هدفت هذه الدراسة إلى حل نقيضة العلاقة بين النص الديني والنظرية العلمية والتي صورت علاقة النص الديني بالنظرية العلمية علاقة لا متغير لامشروط بمتغير والعكس صحيح. وأوضحنا أن هذه العلاقة هي علاقة عكسية وتؤدي إلى احتمالين اثنين إما علاقة احتواء وتضمن للنظرية العلمية في النص الديني أو علاقة استقلال وانفصال بينهما. وكلا الاحتمالين لا يقودان إلى التوافق المطلوب. وقد اقترحت هذه الدراسة تحقيق هذا التوافق من خلال إدخال لامتغير جديد يعد المحور الذي ينظم شكل العلاقة بين النص الديني والنظرية العلمية. وفي ضوء هذا الثابت الحضاري-الثقافي يفرض نوعين من أنواع الانسجام أما أن يكون انسجاما تلقائيا داخليا ISR نابع من داخل السياق ذاته ومحققا نوعا من الانسجام والتوافق التلقائي، أو أن يكون انسجاما مفروضا خارجيا EOR ويتمثل في سلطة القانون لفرض الانسجام بينهما. وللكشف عن ماهية هذا الانسجام، قسمت الدراسة المستوى الثقافي- الحضاري إلى ثلاثة مستويات وأوضحت خصائص النص الديني في كل مستوى من المستويات الثلاثة. وتوصلنا إلى أن علاقة النص الديني بالنظرية العلمية تتناسب تناسبا طرديا زيادا ونقصا بالمستوى الحضاري- الثقافي. وقد بينت الدراسة أن التفاوت في درجة الانسجام مرجعه إلى تفاوت المستوى الثقافي-الحضاري والدرجة التي يشغلها في البنية الاجتماعية. وأن كل محاولة لتحقيق الانسجام بين النص الديني- والنظرية العلمية تجد صعوبة في تحقيقه إلا من خلال فهم تلك العلاقة في ضوء السياق ذاته باعتباره لا متغير. وفي هذه الحالة ينظر إلى كلا من النص والنظرية ليس باعتبارهما لا مشروطا لامتغير ولكن باعتبارهما مشروطا متغيرا في ضوء الثابت الحضاري ذاته. فكلا من العلم والنص يصيران متوافقين ليس في ذاتهما ولكن لانسجام المجتمع ذاته باعتبارهما من عناصر المجتمع الذي يعد العامل المنظم لهذا التوافق والانسجام.

المراجع

Ardekani,B A. & Figarsky,K (2012) Sexual Dimorphism in the Human Corpus Callosum: An MRI Study Using the OASIS Brain Database, Cerebral Cortex 23 (10): 2514-20. Cerebral Cortex Oxford Journal, Oxford.

Brahams,D. (1987) The hasty British ban on commercial surrogacy. Hastings Cent Rep. 17 (1) 16-19. Published by: The Hastings Center, UK.

Christie, A (2012) South Africa shows a way to ensure more predictability in surrogacy arrangements. BioNews, January,9. http:/ /www. bionews. org. uk/page_116639. asp.

Davatzikos,C, Resnick,S,M (1998) Sex differences in anatomic measures of interhemispheric connectively: Correlation with cognition in women but not men, Cerebral Cortex 8 (7): 635-40. Cerebral Cortex Oxford Journal, Oxford.

Haldane,J,B,S. (2008) Faith and Facts, Nelison Press,Canda.

Hassan, M (2009) Darwin's Religious Development and the Responses of Scientific Community: an example of relationship between history and philosophy of science, Journal of Arts and Sciences, Vol (1) (20) Boston, USA.

Hassan, M (2010) Aristotelian Physics and Copernican Science: an Epistemological shift from metaphysical realism to anti metaphysical realism.

مجلة كلية التربية، جامعة عين شمس، المجلد (١٦) العدد (٢)

Huxley,J (1942) Evolution: The Modern Synthesis, New York, Happer and Brothers Publishers.

Imrie, S, Jadva,V (2014) The long term experience of surrogates: relationships and contact with surrogacy families in genetic and gestational surrogacy arrangements. Reproductive Biomedicine online. 29 (4): 424-435. Published by Elservier Ltd..

Mayer, E (1982) , The Growth of Biological Thought, Harvard University Press.

Montagu, A. (1984) Science and Creationism, Oxford University Press, UK.

Paterson, A (1970) The Infinite Worlds of Giordano Bruno. Charles C. Thomas Springfield, Illinois.

Pigliucci, M (2003) Darwinism, Design and Public Education, John Angus Campbell & Stephen C. Myer, (Eds) Michigan State University Press, U. S. A.

Simpson, G,G (1971) The Meaning of Evolution. New Haven, CT: Yale University Press.

Suter,D.M, Dauphin,M. D, Krause, K. H (2006) Genetic engineering of embryonic stem cells. Swiss Med Wkly EMH Swiss Medical publisher,136 (27-28): PP413-415, Swiss.

Weiner, A, D (1980). Expelling the Beast: Bruno's Adventures in England. Modern Philology 78 (1) , The University of Chicago Press Journal, Chicago.

الرئاسة العامة للبحوث العلمية والافتاء، اللجان الدائمة للفتاوى، الجزء ٩،ص ١١٩)، المملكة العربية السعودية.

هوكنج، ستيفن& ملودينوو ليونارد (١٠١٣) التصميم العظيم، ترجمة عياد ايمن أحمد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت.

الخلف، موسى (٢٠٠٣) العصر الجينومي: استراتيجيات المستقبل البشري، عالم المعرفة، الكويت.

البقميصي، ناهدة (١٩٩٣) الهندسة الوراثية والأخلاق، عالم المعرفة، الكويت.